لغة العلوم فى التدريس الجامعى
وهل تصلح العربية
أم ينبغى عن التدريس باللغات الأجنبية
للأستاذ عبد الله كنون

إن لغة العلوم فى التدريس الجامعى وفيما قبله من مراحل الدراسة فى العالم العربى يجب أن تكون هى العربية ، ولا يصح أن تكون غيرها بحال ولئن كان ما أثار هذا التساؤل من جديد هو تقرير الخبراء الأجانب الذى أوصى بإجماع الآراء بضرورة تعليم الطب فى جامعة حلب باللغة الإنكليزية فان ماوراء هذا الإجماع من نية مبيتة لعزو عاصمة بنى حمدان غزوا فكريا على غرار ماوقعه (دنلوب) من قبل فى بلاد الكنانة ، هو مما لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان .

والعريب فى أمرنا حسن العرب أن مقوماتنا الأولى من لغة وتربية وما إلى ذلك هى التى تجعلها محل استشارة واستشاوة أجنبية بالخصوص فى حين أن الشعوب التى تريد أن تبنى كيانها على أساس من ماضيها وحضارتها وتطلعاتها للمستقبل ، تحتط لمسها وتستعين بالأجانب على النهيد .

فعلى أحسن ما يكون الظن بهؤلاء الأجانب ألا يوحى موقفنا هذا بالضعف والتخاذل والشك فى قوميتنا العربية؟ وإذن فان الأجنبى أولى منا بالشكر فى صلاحية مقوماتنا ولا نتوقع منه أن يتحمس لها دوننا لأن من لم يؤمن بنفسه لا يؤمن به الناس .

ولقد قرأت فى العدد الأخير من مجلة دنيا العلوم استجوابا أجرته المجلة مع البروفسور (واووستر) أستاذ علم البلورات بجامعة كمبردج ورئيس الاتحاد البريطانى للمشتغلين بالعلوم وأمين صندوق الاتحاد العالمى للمشتغلين بالعلوم وذلك بمناسبة زيارته للقاهرة ، جاء فيه عندما سئل عن رأيه السريع فيما يجب أن يكون عليه التعليم فى البلاد النامية ، فقال على الفور : يجب أن يكون فى التعليم الابتدائى فلسفة البلاد القومية وأن يكون فى التعليم الثانوى لغة عالمية إلى جانب تدريس اللغة القومية ، مع ضرورة التدريب على الأعمال اليدوية وقيام التلاميذ بتجارب عملية بأنفسهم لا أن يقوم المدرس بتجربة

(*) قدم البحث إلى مؤتمر المجمع فى دورته الحادية والخمسين .

عمليةأمام التلاميذ وهم يتفرجون فقط ، فاذا أردنا أن نحقق لشعب ما تدريبا متينا فمجب أن يبدأ هذا التدريب فى كل مكان .

وما قاله هذا العالم الكبير هوالذى نقول به ، فإن إضافة لغة أجنبية أو لغتين إلى اللغة القوميه فى التعليم الثانوى ، هو مما لامندوحة لأحد لإتاحه فرصه التعليم الخارج ولمتابعه الاطلاع على المجالات العلميه من نظريات وابتكارات سواء كانت هذه اللغة القومية هى العربية أو الفرنسية أو الإنجليزيه أو سواها فالعربية فى هذا تتساوى مع غيرها من اللغات فى عدم صحة الاستعاء عن اللغات الأخرى ولعل البروفسور (ووستر) سكت عن التعليم الجامعى . لأن السؤال كان عن التعليم فى البلاد الناميه ؛ والبلاد العربية فى هذا الميدان . أعنى ميدان التعليم . ليست من البلاد الناميه . لعنيا العربيه ، لعه حبه ومنظوره وعريقه فى المجد العلمى والحضارى وهذا أمر لايجهله مثل البروفسير إلا أن يكون المستجوب من أولئك الذين يسعون بمركب النقص الذى أشرنا إليه آنفا إزاء اللغه العربيه فيكون سكوت المحب عن هذه النقطة بالذات من أسلوب الحكيم .

نعم إن بلادنا العربيه بلاد ناميه اقتصاديا لكنها علميا بلاد متقدمه ، لأن لها ثقافة روحية وتشريعيه عظيمه ولها أدب عالمى خالد ولغتها بالمكانه التى ذكرت . وليس ينقصها إلا تكوين علمى تقنى سريع لتاحق بالركب الطلائعى التقدمى وتجبر خللها الاقتصادى الذى يار بها فى حظيرة الشعوب النامية ، ورعما كان هذا التكوين هو ما يعنيه (ووستر) بالتدريب المبنى على ما جاء فى آخر كلامه .

ويؤيد هذا أن الحكومه المغربية استقدمت لجنة من خبراء البلك الدولى للإنشاء والتعمير بقصد الاستشاره ، فكان من رأيها أن اردواجيه لغة التعليم هى مما ستنزف مالية المغرب (نتاج ميزانيه وزاره التربية الوطنية ملايارا من الفرنكات يصرف معظمها فى أجور الأساتذة الفرنسيين فضلا عن كونها السبب فى هبوط مستوى التعليم) وأوصت باعتماد لغه البلاد وجعلها اللغة الأساسيه للتعليم

ولقد يعجب القارئ من إخلاص هذه اللجنه الأجنبيه وإشارتها الصائبه ، ولكنه إذا تذكر أنها لجنه مالية لا تعنيها وأن ماقامت به هو عمارة الأرقام بين الوارد والمصارف ؛ قطاعات المصالح الحكوميه ، فلم يكن يهمها التكوين لهذه الجهة أو تلك وإنما عرضها إيجاد وضع سليم . إذذاك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصه .

وعليه فان بيسا وبين تخطى عتبة التخلف هو نشر التعليم بلغتنا القوميه ورفع مستوى شعوبنا من الأميه العلمية التى تتخبط فيها إلى مستوى الشعوب المتعلمة المتمرسة ببسائط العلوم ونواميس الطبيعه . أى نقل العلم إلى المجتمع العربى وجعل أفراده يدركون حقائقه وبديهياته كما يدركها أى فرد فى مجتمع راق من المجتمعات المعاصرة . ولن يكون ذلك

إلا إذا تعلم الشعب العربى بلغته الأم ، وطوع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مساها ومعناها أما أن يتعلم عدد من الأشخاص بلغة أجنبية فمعناه نقل هؤلاء الأشخاص إلى عالم العلم وزيادة عدد المتعلمين فى اللغة التى تعلموها ولا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم ، لأن التفاهم بينها وبينهم معدوم بسبب اللغة التى هى أكبر حاجز يمنع هذا التفاهم بل يمنع حتى الاتصال . ولعل هذا هو السر فى أن النهضة العلمية فى بعض الأقطار العربية بدأت منذ حوالى ومازالت لم تؤت أكلها على المحو المرغوب . ومازال الشعب العربى فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى

يشير بعضهم إلى وجوب ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم فى آخر ما أنتجت من أجل التقدم الإنسانى المطرد ، قائلا إن ذلك لا يتأتى إلا ممن تلقى تعليمه العالى بإحدى اللغات الأجنبية الحية ونحن نقول إنه يتأتى لمن أتقن لغة من تلك اللغات ولا يلزم أن يتلقى تعليمه العالى بها وقد قلنا بضرورة تلقين لغة أجنبية أو لغتين منذ المرحلة الثانوية للتعليم ، وإنما الذى يبغى تأكيده هو أن يكون هذا التلقين قويا ليتقن المتعلم تلك اللغة كما هو الحال عند غيرنا من الأمم والشعوب ، فإذا جاءت مرحلة التعليم العالى وحصل الطالب على الدرجة العلمية المتعودة بلغته الأصلية ، كان عنده من الوسائل العلمية ما يؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمى والتقدم فى العالم بكل نجاح ، إن هو أراد ذلك . وهذا هو ما يفعله العالم الفرنسى والألمانى وغيرهما من علماء الأمم التى تقف فى الصف الأول من حيث التصنيف فى التقدم والحضارة ، وكذا علماء غير هذه الأمم ممن يقعون فى الصف الثانى وإن كانوا فى الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك . وليس منهم من يدرس العلوم فى بلاده بغير لغته القومية ، اللهم إلا أن يستثنى الأستاذ الجامعى تستقدمه جامعته لإلقاء بعض المحاضرات فى فرع من فروع المعرفة يكون له اتصال علم به . أو يذهب فى بعثة دراسية إلى بلد أجنبى . وحينئذ تكون اللغة الأجنبية التى لغتها فى الثانوى هى وسيلته فى الدراسة وهو بإقامته فى ذلك البلد الأجنبى ، لابد أن يتقن فى لغته حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها .

وعلى كل فإن الاطلاع على دنيا العلم وما يجد فيها من تجارب وكشوف ، مردد بالهمة والنشاط وحب المعرفة أكثر من كل شىء آخر فكم من دارس لهذه اللغة الأجنبية أو تلك قد تمكن منها كل التمكن وصار أعرف بها من كثير من أهلها . وإذا تكلم بها فإنه لا يجزم حرفا ولا يبره من نبراتها ولكنه فى مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار ، قد يقطع ما بينه وبين التحصيل ، لم تجرحه ولم تقد منه أمنه سنا بل كر بل هو يستكمل خصما لها بما أنه تنكر لمعارفها ولغتها حتى لقد أصبح عبئا ثقيلا على مجتمعه لا يستسيغه ولا ينسجم وإياه .

وبالعكس فإن هناك دارسين مؤمنين فى أنفسهم العزيمة والتطلع وذهبوا إلى بعثة

العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتطلع فى اللغة الأجنبية الذى عند صاحبنا الأول ، فنراهم دائما على اتصال بما جد ويجد فى حقل الخبرات الإنسانية والأعمال الفنية المبتكرة ينشئون ويبتجون باستمرار ودون انقطاع ، ما يثرون به تراثهم القومى وحياة الفكر فى بلادهم. فهؤلاء هم الذين تعول عليهم الأمم والشعوب فى تطوير عقليتها وإخصاب ثقافتها ، لا أولئك الطفيليون الكسالى ، الذين لا عناء فيهم ولا فائدة ترجى منهم .

ونعطى مثالا من معربينا العربى الذى يعتمد الفرنسية فى الدراسات العامه ، فإن عشرات بل مئات من مثقفيه ، قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العامية ، أو على الأقل لا يعرف لهم أثر فى هذه الحياة . وقد مر على تخرج الكثير منهم عشرات السنين وذلك برغم إتقانهم للغه الفرنسيه إتقان أبنائها فالطبيب منهم يعالج المرضى إن لم يشغل وظيفة حكومية يكون أكثر دخلا من مهنته تاركا ميدان التطبيب للدكتور الأجنبى ، وكذلك المحامى والمهندس وغيرهما لا يزيدان على مزاولة مهنتهما بصفة عادية ، ولقد عجز كثير منهم حتى عن إعداد أنفسهم للتدريس بالعربية فى المدارس الثانويه لإنحسار مشروع تعريب التعليم فأين ما يزعمه هذا الذى يقول إن الدراسة اللغة أجنبية تفتح آفاق التعليم والاطلاع ؟

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد أكمل دراسته باللغة العربية فى بلاده ، ثم ذهب فى بعثة دراسية إلى فرنسا فحصل على الدكتوراة فى الفلسفة والأدب بتفوق ولما رجع إلى بلاده قام بحركه فكرية وأدبية عظيمه ، درس ، وبحث ، ونقد وألف فى أكثر فنون الأدب كتبا قيمة . نقل الكثير منها إلى اللغات الأجنبية وغيرها وما لبث أن صار عميد الأدب العربى ورئيس المجمع اللغوى ، والغريب فى الأمر أنه ضرير ، فبكم تقاس الدكتور طه حسين من الدارسين باللغة الفرنسية الذين ليس لهم همة وعزيمة ، وإن كانوا فى إتقان الفرنسيه والعلم بها رمما يفوقونه ؟

والعقرى الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ، إنه لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللغة العربية ، ومع ذلك فإنه كان آية فى الاطلاع والتفتح على أحدث الأنظار العالمية والفلسفية ، وتغذية الأدب العربى والثقافة الإسلامية بأحسن ما ظهر فى عالم الفكر والمعرفه ، حتى أصبح قمة من قمم العالم والأدب . وكانت اللغة الأجنبية التى يتقنها هى الإنجليزية . وإنما تعلمها فى السنوات الأولى من الدراسة الثانوية .

هذان المثالان وإن يكونا من عالم الأدب ، فإنهما يجران ذيلهما على عالم العلوم ، وقصدت الإتيان بهما للإلماع إلى جنايه أخرى مما تجنيه الدراسة باللغات الأجنبيه على الحياة الأدبية فى هذا الجناح من الوطن العربى .

إن بلاد المغرب كثيرا ما تشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الإنتاج الأدبى وقلة القراء ودور النشر أو انعدامها بالمرة وتأخر فى الطباعه العربية وإن كثيرا من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الأسباب ولكنهم قلما ينتبهون إلى السبب الرئيسى فى ذلك وهو انتشار الثقافة الأجنبية وغزو الفكر الفرنسى لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلة والكتاب الفرنسى للقارىء العربى وحلول المكتبات الفرنسة محل المكتبات العربية وعود فائدة ذلك كله إلى الكتاب والناشر الفرنسيين ، ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربى كالسينغال يفكر باللغة الفرنسية وينتج بها، ولأمر ما نجد المتعلمين بها هم أكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى فى التعليم الابتدائى كما كان عليه الحال أيام السيطرة الاستعمارية؛ لأنهم على ما يظهر، يريدون أن يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها ، فهذا ما فعله التعليم باللغة الأجنبية فى وطن عربى كبير فى الميدان الاجتماعى والقومى، ولن يكون أثره فى المجال العلمى والتقنى بأحسن من ذلك أثرا ولا أقل ضررا .

ويورد أناس مشكلة المصطلح العلمى والاختلاف فيه على قلة ما وضع منه ويجعلون ذلك عقبة فى طريق تدريس العلوم باللغة العربية ، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة فى هذا السبيل ، وأمره أهون من ذلك ، فأكثر المصطلحات العلمية عالمية مشاعة بين الأمم على احتلاف لغاتها ونحن العرب لا بد أن نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة، ولسنا فى ذلك بدعا من الناس بل إن أجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الله وسانتريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مئات الألفاظ التى لم يغيروها وأبقوها على حالها فضلا عن التى عربوها وأجروها على الموازين العربية. فليسعنا ما وسعهم ، لاسيما والمصطلح ما هو إلا لفظ يحتاج إلى الشرح ولو كان عربيا، فكيف نقف حجرا فى طريق **تدريس العلوم بالعربية** .

ولقد وضع الأفراد والجماعات وأصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التى تسهل مهمة مدرس العلوم، فما عليه إلا أن يجد فى تحصيلها، وعلى جامعاتنا أن تزود مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الأساتذة والمدرسين والطلبة والباحثين، ولا تأخذ أحدا من هؤلاء العزة بالإثم فيتورع عن الاستفاده من جهود العلماء الذين سبقوه فى هذا الصدد ويستغنى عن التزود بما قدموه من ثمار يانعة طالما تعبوا فى نطقها . فان العلماء يجب أن يكون خلقهم الإنصاف والاعتراف بالجميل للذويه وما نال من نال إلا بالتعظيم والاحترام لأهل الفضل وما حرم من حرم إلا بترك ذلك

وأحسب أن ما يهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربية وتعدد الأسماء لمسمى واحد إنما هو من سوء التقدير وحب التغلب ، وإلا فأية لغة ليس فيها ذلك؟ وإنك لتجد المؤلف توصـــع له اللوائح الخاصة لتقسيم مصطلحاته ومع ذلك ما رأينا أهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كتاب العربية لتوحيد المصطلحات حتى صارت نهجا متبعا كلما وقع الكلام على تعريب العلوم إلا وأثارها هذا الكاتب أو ذاك، ولو على سبيل التقليد، وهي كانت أحرى بأن تعد اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا تصد عنه، ولا سيما لمن يتكون من قاله المصطلحات المتعددة وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المكثرون .

على أن مجمع اللغة العربية الذي أصبح يمثل البلاد العربية جمعاء قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط، وخطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعددة وانتقاء الأصلح الواضح والدقيق الدلالة منها ، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من أهل العلم والمعرفة من بقية الأقطار العربية الأخرى ، فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من أمانته العامة ولا يبق حائرا يردد كلاما قديما لم يكن على صواب لما قيل لأول مرة. فكيف به الآن وقد صار أسطوانة مملولة ، والظن بل الواجب أن يستمر الوضع للمصطلحات من أهل العلم وأن تتعدد المصطلحات لذلك ولكن مجمع اللغة ذا السليقة العربية والحس اللغوي المشترك من أبناء العروبة في المشرق والمغرب ، هما اللذان يختاران أو يقران ما يصلح . أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) هذا وفي نفسي شيء أخاف إذا أبديته أن أرمى بالمبالغة وربما بسوء الظن ، ولكني لا بد أن أشير إليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو أني أرى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الأيام حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم وعلمها أيدٍ خفية تحركها وتنفخ في نارها وهي أيد ليست بريئة ولا تريد الخير للعرب ولا للعربية وإنما أصحابها يرون ويسمعون خيره بعض الأقطار الإفريقية والآسيوية وخاصة الإسلامية منها التي استقلت أخيرا وملكت أمر نفسها وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة أولها هذه اللغة وتريد أن تكتبها بحروف ما من الحروف الأوفى لنطقها وهجائها وكثير من هذه الأقطار تتطلع للغة العربية والحرف العربي فلصدها عن هذا التطلع والتشكيك في قيمة العربية وصلاحيتها حرفها للكتابة الصحيحة ، يوعز المعزون بإثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلات العربية بالذات ويوحون بطريق غير مباشر إلى بعض أوليائهم ومالي لا أقول بتواطؤ مع بعضهم إلى الجهر بالحكم على العربية وحرفها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة

العصرية وعدم الكفاية لما يتطلبه المد الثورى الذى يكتسح البلاد العربيه من تطور فى وسائل تحقيق البعث العربى: المادية والمعنوية ومنها أداة التعبير الملائمة للعصر .

إن أولئك الإخوان الأفاضل والآسيويين إذا سمعوا العرب أنفسهم يرددون هذا الكلام ويتهمون لغتهم أشنع الاتهام لا بد أن يقر فى أنفسهم ما يلقيه إليهم المستعمر الذى خلا عن أرضهم من الباب وعاد يدخل إليها من النافذه. لاسيما وهو ما يفتأ يمدهم بالعون والخبره المدخوله. ويقدم إليهم المشروعات الخاطرة فى هذا الطلب وغيره من مطالب الحياة ولذلك فإن المتأنى والمتتبع منهم هو الذى يرجئ مسألة اتخاذ العربيه لغه رسميه له واضطلاع الحرف العربى لهذين، وغيره يغرم ولا ينتظر ومن ذلك ماجرى أخيرا لدى بعض الدول فى أفريقيا من عقد مؤتمر تحت رعايه منظمه اليونسكو للنظر فى وضع أبجديه لكتابه لغاتها وتوحيدها وهكذا نصيح على أنفسنا وعلى أصدقائنا فرصا ثمينة لا تعوض بجدالنا وتنازعنا فى هذه الأمور. وكان الأجدر بنا أن نغتنم هذه الفرصة لنسط نفوذنا الروحى فى أقطار العالم . وكما أخرناه ذلك أن نرفع رأسا فخرا لما لنا من ثقافة عالميه ولغة حية تعمل أكثر لمعان العصر تقدما

لكسب ما لها من مقام وخرمه وتأثير فى حياه عدد من الشعوب المنتشرة فى أطراف المعموره

ولا يقال إن هذا الكلام عاطفى فى مجال علمى فإن العلم كل العلم أن نهض بلغتنا وننشرها على أوسع مدى كما تفعل الأمم الراقية ولو لم يكن فى تبنى لغتنا وحرفنا من طرف أمم اخرى غير عربيه إلا التثبيت وزياده الإيمان للمؤمنين وإقناع الشاكين المترددين. لكان ذلك كافيا لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها فى كل مكان. ولقمنا نتعاون مع هذه الأقطار الناطقه فى تعلم العربيه بوضع برامج سهله ومبسره لتعليمها لأبنائها. وبنشر مجموعه من الكتب المفيده التى تطهرهم على كنوز التراث العربيه. ليجعلهم يتذوقون الأدب العربى قديمه وحديثه ويتصلون شيئا فشيئا بالفكر العربى والتراث الإسلامى حتى يمتزجوا. ولو بعضهم. فى السعب العربى ويصيروا من أخلص أصدقائه وأقرب الناس إليه

إن هذا « تكتيك » وليس عاطفه ولكنه يتطلب من العمل قدر ما عندنا من القول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » صدق الله العظيم

عبد الله كنون
عضو المجمع من المغرب